أبو الأعلى المودودي

المبادئ الأساسية لفهم القرآن



الحمد لله رب العالمين ، القائل فى كتابه الكريم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين : وبعد ٠

أسلوب الوحى وأسلوب البشر فى الكتابة :

ان الكتب التى ندرسها عامة نجد أن جميع ما فيها من معلومات وأفكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه ، بأسلوب تأليفى وبصورة منسجمة ٠ ولأجل ذلك فالدارس الذى ليس له عهدا بالقــرآن ، اذا أراد أن يدرسه أول مرة فى حياته فانما يتناوله وهو على ظن أنه باعتباره « كتابا » سيكون على غرار عامة الكتب التى تعود قراءتها ، قد حدد موضوعه المنشود ، ثم قسم هذا الموضوع الى أبواب وفصول، وكذلك يظن هذا الكتاب قد تناول كل شعبة من شعب الحياة الانسانية على وجه الاستقلال بالبحث والعرض ليسرد ما يتعلق بها من أحكام وتعاليم بترتيب متسلسل ٠ الا أن الدارس اذا بدأ يتصفح هذا الكتاب يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه ، فيجد أسلوبا لم يألفه من قبل ، اذ أنه يرى فيه المسائل العقائدية والتعاليم الخلقية ، والأحكام الشرعية ، والدعوة والنصيحة ، والعبرة والنقد ، والزجر والتخــويف والترغيب ، والحجج والشواهد ، والقصص التاريخية ، والاشارات الى آيات الله فى الكون ٠ كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين ، ويبدأ ويعاد بوجوه متباينة وأساليب منوعة ٠ كما أنه بينما يطرق موضوعا فاذا به يولى وجهه شطر موضوع ثان وثالث ٠ بل يكون الأمر أغرب من ذلك ، حين يبتدىء موضوع ثم يتخلله موضوع آخر

مبغتة • كما يتبدل المخاطب والمتكلم بين حين وآخر . وتتجه وجهة المحاورة الى جهات مختلفة مرة بعد أخرى •

أما تقسيم المواضيع والمباحث الى أبواب وفصول فلا عين له ولا أثر واذا نوقش فيه التاريخ لم يناقش على الأسلوب السائد لكتابة التاريخ • واذا سيقت البحوث حول الفلسفة وما يتصل بأمور ما وراء الطبيعة ، لم تسبق فى مصطلحات تختص ببحوث الفلسفة والمنطق ، واذا ذكر الانسان وما فى العالم من موجودات لم يذكر على منهج للعلوم الطبيعية • واذا تطرق الموضوع الى شؤون المدنية أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع لم يسلك مسالك علم الاجتماع فى البحث والتمحيص • واذا اتى على ذكر من الأحكام القانونية وأصول التشريع لم يأت بصياغة يعتادها أصحاب التشريع وعلماء التقنين فى هذا المجال • واذا عرض تعاليمه فى الأخلاق واستقامة السلوك رايته يختار لها النمط الذى يغاير سائر ما كتب ودون فى هذا البـــاب •

ان الدارس اذا وجد هذا وأمثاله على غير ما ألفه من أساليب الكتابة وأنماط البيان ، وعكس ما تعوده من مناهج التعبير تأخذه الدهشة ويبدأ يستشعر أن هذا الكتاب ينقصه الترتيب ويعوزه التنسيق ويشكل من أوله الى آخره مجموعة من شذور متناثرة وقطع مبعثرة جمعت فى عبارات متسلسلة وحلقات متماسكة •

أما الدارس الذى لم يؤمن بهذا الكتاب ، ولا يريد من دراسته الا اثارة الشبهات ، فهو يجد فى فقدان الترتيب والتنسيق متسعا لاثارة الاعتراضات المنوعة حول الكتاب • وأما المؤمن به والخاضع له فتتجاذبه المواقف والأطوار •

فمرة يغمض نظره عن المطالب خلال دراسته • وأخرى يطمئن قلبه بتفسيرات عديدة لانعدام التناسق الظاهرى •

ورابعة يستسلم لفكرة « شذور متناثرة » فتصبح كل آية من آياته معزولة عن السياق العام • وتعود مسرحا لابتكار المعانى التى تخالف ما يريده العزيز الحكيم •

معلومات أولية ضرورية :

ولكى تتحقق دراسة جديدة لكتاب من الكتب ، من الضرورى جدا أن يكون الدارس قبل كل شىء على معرفة بموضوع الكتاب ، وعلى علم مسبق بمقاصده وغايته المتوخاة والبحث الرئيسى فيه ، وعلى الاطلاع بطرائق أسلوبه ، وعلى خبرة بمصطلحات لغته ونمطه الخاص فى التعبير وأن لا يغيب عن نظره الأوضاع والملابسات التى تكمن وراء ألفاظه ونصوصه •

ان عامة الكتب التى ندرسها نجد فيها الجوانب التى أشرت اليها بكل سهولة ، ولذلك لا نلاقى صعوبة فى استكناه أسرارها وبلوغ مغزاها • ولكننا لا نعثر عليها فى القرآن بالشكل الذى تعودناه فى غيره من الكتب • ولذلك اذا بدأ يدرسه أحد منا لعامة الكتب فلن يستطيع التعرف فى موضوعه وغايته وبحثه الرئيسى ، وسيستغرب أسلوب بيانه وطراز تعبيره ، ويعزب عن نظره الملابسات الكامنة وراء ألفاظه فى معظم المواضع •

ونتيجة لذلك فانه يحرم من التوصل الى روح كلام الله ، ورغم استفادته قليلا أو كثيرا من لآلىء الحكم القرآنية المشرقة المتناثرة • وبالتالى يضطر الى الاكتفاء بحفنة من حكم مبعثرة والى اقتطاف قبضة من زهور متناثرة بدلا من أن يلم بعلم الكتاب ويطول فيه باعه • بل ان بعض الناس الذين يقعون فى شبهات وأخطاء بعد دراسة القرآن ، يعزى سبب ضلالهم الى أنهم قرأوا القرآن دون سابق المام بالقواعد اللازمة لفهمه فصادفوا المباحث المختلفة المتنوعة

متناثرة فى صفحاته ، ولم يظهر لهم مغزى كثير من آياته ، ورأوا العديد من الآيات كأنها جواهر تتلألأ بنور من الحكمة الربانية ، ولكنها فيما يبدو غير منسجمة مع سياق العبارة السابقة واللاحقة ، وكثيرا ما قذفهم جهلهم بأساليب القرآن التعبيرية ، وأنماطه البيانية الى معان غير مقصودة • كما وقعوا فى ضروب من سوء الفهم لكثير من الآيات لأنهم ما عرفوا أسباب نزولها •

القرآن من أى أنواع الكتب ؟ وما هى كيفية نزوله ؟ وما هو سر ترتيبه ؟ وما هو الموضوع الذى يدور حوله كل نقاشه ؟ وما هى الغاية التى يتوخاها من بحثه ؟ وما هو البحث الرئيسى الذى يحوم حوله جميع ما فيه من مباحث منوعة ومواضيع مختلفة ؟ وأى لون من الاستدلال وأى نمط من البيان اختاره للتعبير عما يهدف اليه •

هذه وأمثالها من الأسئلة المهمة اذا وقف الانسان على الردود عليها فى مطلع الامر فانه يستطيع أن يتفادى كثيرا من المخاطر والمزالق وهو بصدد دراسة القرآن كما تتوسع فى وجهه سبل فهمه وتدبره • ومما لا خلاف فيه أن الذى يريد فى القرآن الترتيب التأليفى المتداول ثم يتخبط فى صفحاته خبط عشواء اذا لم يبلغ ما يريد ، فان مبعث تخبطه ومثار حيرته ليس الا أنه لم يتعلم ما لدراسة القرآن وفهمه من أصول وقواعد ولأنه بدأ يطالع القرآن ظنا منه أنه يطالع « كتابا » موضوعه « الدين » ويكون فى تصوره « للكتاب » و « للدين » على ما يكون فى أذهان عامة الناس من تصور « للدين » و « للكتاب » بيد أنه حين يواجه فى هذا الكتاب ما يختلف عن تصوره الذهنى يجد نفسه لا تأنس اليه • ويظل يتيه بين دفتى الكتاب لعجزه عن معرفة نقطة الانطلاق فى بحثه ويكون مثله فى ذلك كمثل النزيل الغريب الذى يهيم على وجهه فى دروب مدينة كبيرة ويمكن أن يتفادى هذا الضياع لو أخبر مقدما بأن الكتاب الذى يريد دراسته هو نسيج وحده فى عالم التأليف • وتم « تأليفه »

على نمط لم يتم عليه تأليف الكتب الأخرى • كما أنه فذ فريد باعتبار موضوعه وبحثه وترتيبه •

فالقالب العام للكتاب كما تتصوره نتيجة دراستك للكتب المؤلفات حتى اليوم لا يسعفك فى تفهم هذا الكتاب أبدا ، بل ويثير الحواجز دون طريقك • واذا أحببت أن تفهمه ، عليك ان تبعد عن ذهنك كل ما أثبت فيه من تصورات وقياسات ، وأن تدرك ما لهذا الكتاب من خصائص بديعة ومزايا رائعة •

أصل القرآن :

يجب على قارىء القرآن أن يعرف قبل كل شىء « أصل » القرآن سواء آمن به أو لم يؤمن به • لأنه ما دام يريد فهم هذا الكتاب فلابد له أن يقبل ابتداء أصله كما ورد فيه وكما بينه الذى أنزل عليه هذا الكتاب وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم •

ويمكن أن يتضح أصل القرآن فى النقاط الآتية :

١ ـ ان الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون ومالكه وحاكمه ، خلق الانسان فى جزء يسمى « بالكوكب الأرضى » من أجزاء مملكته التى لا نهاية لها وأودعه قوى العالم والتفكير والادراك ، وألهمه تمييز الخبيث من الطيب ، وأعطاه حرية فى الادارة والاختيار ، ومنحه سلطة للتصرف فى الأمور كما يشاء ، وخوله نوعا من الاستقلال (Autonomy) واستخلفه فى الارض •

٢ ـ وحينما عهد الله تعالى الى الانسان بهذا المنصب الخطير ، أثبت فى قرارة نفسه هذه المعانى ، انى أنا ربك ورب هذا العالم ، والهك واله هذا العالم ، وحاكمك وحاكم هذا العالم فلا تكن فى مملكتى هذه حرا طليقا تركب رأسك ، ولا تكن عبدا لغيرى فلا أحد غيرى

يستحق أن تطيعه وتعبده وتخضع أمامه وان الحياة الدنيا التى أعطيت فيها نوعا من الاستقلال انما هى فترة امتحان ترجع الى بعد انتهائها فأفحص ما عملت فيها ، وأفصل فى أمر من نجح ومن رسب • وأصح منهج تختاره فى هذه الدنيا : أن تتخذنى الهك الواحد وحاكمك الفرد ، وتعمل حسب ما أنزل من هدى ، وأن تعيش وأنت تشعر بأن الدنيا دار للامتحان ، وأن غرضك الحقيقى هو أن تنجح فى الآخرة • وعليك أن تعلم أيضا أن كل منهج يخالف هذا المنهج خطل هو وخطأ • وأنك ان اتبعت المنهج الأول (وأنت حر فى أن تتبعه) فلن تتمتع فى الدنيا فحسب بالامن والاطمئنان ، بل سأنعم عليك حين ترجع الى ، بدار اسمها « الجنة » تجد فيها نعيما مقيما وراحة أبدية، ولا يمسك فيها نصب ولا لغوب • وان سلكت منهجا آخر غير هذا المنهج (وأنت حر فى أن تسلكه) فلن تذوق فى الدنيا فحسب وبال الفساد والقلق والدمار ، بل حينما تعبر هذا العالم الى عالم الآخره سيكون مصيرك الى هاوية النار فيها عذاب خالد وألم دائم وغم أبدى •

٣ ـ أسكن الله مالك الكون النوع البشرى فى الأرض بعد أن ثبت فى قرارة نفسه المعانى السابقة كما أنه جل شأنه آتى الانسان الأول وزوجه ـ آدم وحواء عليهما السلام ـ هدى من عنده ليتبعاه ، هما وزريتهما فى الأرض • ولم يخلق الانسان الاول فى حالة الجهل والظلام • بل ان الله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء ليبدآ حياتهما فى الأرض على حالة من النور والعلم • فكان الانسان الاول يعرف ما هو الحق ، ويعلم ما ينبغى له عمله من قانون للحياة وكان منهجه فى الحياة طاعة الله (أى الاسلام) • ووصى بدوره ذريته بأن لا يطيعوا الا الله ولا يموتوا الا وهم مسلمون الا أن الانسان قد حاد عن المنهج الصحيح (أى الدين القيم) فى القرون المتعاقبة رويدا رويدا ، واتبع السبل المعوجة والمناهج المنحرفة المتضاربة وضل عن الطريق السوى بعدم المبالاة به مرة وبمسخه بجحود ومكابرة مرة أخرى •

فأشرك بالله فى ذاته وصفاته ذواتا عديدة من السماء والأرض ، وهمية ومادية ، بشرية وغير بشرية · وخلط أنواعا من الأوهام وضروبا من النظريات وألوانا من الفلسفات بنبع طاهر من العلم (أى علم الحق) الذى آتاه الله ، وصنع من ذلك مذاهب لا عد لها ولا حصر ، ونبذ وراء ظهره ما قرره الله من مبادىء عادلة للاخلاق والمدنيـــة (أى الشريعة) أو مسخها · ثم وضع كما أوحى له هواه وعصبيته نظما ومناهج للحياة ملات أرض الله ظلما وفسادا وبورا وشقاء ·

٤ ـ ان الله الذى أعطى الانسان ذلك الاستقلال المحـــدود لم يتدخل ـ بصفة كونه تعالى خالقا ـ فى رد من ضل وغوى من الناس الى المنهج الصحيح بالقهر والقسر كما أن المهلة التى منحها الله للانسان ليعمل فى الدنيا بحرية ، لم يكن ليناسبها أن يأخذه ويهلكه بمجرد شقه عصا طاعته واتباعه طريق البغى · ثم ان الله سبحانه وتعـالى قد أوجب على نفسه منذ بدء الخليقة أن يدبر للانسان طرق هدايتـه مع اقرار استقلاله فى فترة المهلة التى أعطاه اياها ، وتحقيقا لمـا أوجبه الله تعالى على نفسه بارادته المطلقة اصطفى الله من النـــوع البشرى رجالا آمنوا به وابتغوا مرضاته ، واتخذهم مبعوثين له ، وأوحى اليهم علم الحق ، وأنزل عليهم منهجا صحيحا للحياة ، وأمرهم بأن يدعوا الناس الى الصراط المستقيم الذى عدلوا عنه ·

٥ ـ بعث هؤلاء الرسل الى مختلف الأمم ومختلف الاقطـار ، واستمرت سلسلة بعثهم آلافا من السنين ، وكانوا آلافا مؤلفة ، وكانوا على دين واحد أى نفس المنهج الصحيح الذى علمه الله الانسان منذ هبط الى الأرض · وكانوا يتبعون هديا واحدا ، أى نفس المبادىء الخالدة العادلة للاخلاق والمدنية التى قررها الله تعالى للانســان فى بداية الأمر · وكانوا يرمون الى غرض واحد أى دعوة النوع البشرى الى دين الله وهدايته · ثم ان الذين قبلوا دعوتهم نظموهم وجعلوهم أمة واحدة ، تتبع أحكام ربها وتطيع المنهج الالهى فى الدنيا ،

وتسعى لمنع الناس من مخالفة هذا المنهج • ان رسل الله قاموا بتحقيق ما أرسلوا به على أكمل وجه • الا أن الذى حصل على مدار التاريخ هو أنه لم يلتفت العدد الكثير من الناس الى دعوتهم • كما أن الذين آمنوا بدعوتهم واتبعوهم وأصبحوا أمة مسلمة قد أخذوا فى الفساد والضلال على مر الأيام وكر الليالى • فمنهم من ضل عن الحق كل الضلال ، ومنهم من مسخ تعاليم الله وحرف الكلم عن مواضعه وكتب فيها بيده •

٦ ـ وأخيرا بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم فى أرض العرب بنفس المهمة التى بعث بها من سبق من الأنبياء والرسل • فكانت دعوته صلى الله عليه وسلم لكافة الناس بما فيهم أتباع الأنبياء الذين خلوا من قبله • كانت مهمته صلى الله عليه وسلم دعوة الناس كافة الى المنهج الصحيح ، وتبليغهم هداية الله من جديد ، وجعل من آمنوا بهذه الدعوة أمة واحدة ، تقيم نظام حياتها على هدى من الله ثم تخرج لهداية الدنيا واصلاحها • وان هذا القرآن هو كتاب الدعوة وسفر الهداية الذى أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فيه هدى ونور ، يهدى به من يشاء من عباده •

موضوع القرآن وبحثه الرئيسى وهدفه :

والآن وقد عرف القارىء « أصل » القرآن ، يمكنه أن يفهم ما هو موضوع هذا الكتاب ، وما هو بحثه الرئيسى ، وما هو هدفه المنشود •

فموضوعه « الانسان » : ما هو مدار نجاحه وسعادته وما هو مدار خسرانه وشقائه •

وبحثه الرئيسى : أن النظريات التى وضعها الانسان عن نفسه وعن الحياة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الاله ، مدفوعا بدراسته

السطحية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الأهواء ، ثم المواقف التى اتخذها على أساس تلك النظريات فانها كلها فى حقيقتها باطلة ومهلكة للانسان نفسه من ناحية المصير وانما الحق هو الذى علمه الله الانسان حين جعله خليفة له فى الأرض • وبموجب ذلك الحق ليس من منهج من المناهج يقوم على الصحة ويتوصل الى العاقبة الحسنة الا المنهج الذى ذكرناه فيما سبق وسميناه : « المنهج الصحيح » •

وهدفه : دعوة الانسان الى هذا المنهج الصحيح ، وتبيان لهدى الله الذى ضل عنه الانسان بعدم المبالاة ، أو شوهه بدافع من غروره ومكابرته •

والذى يدرس القرآن واضعا هذه النقاط الثلاث الأساسية أمام عينيه يتبين له بدون ما غموض ، أن هذا الكتاب لم يحد عن موضوعه وبحثه الرئيسى وهدفه المنشود ، حتى ولا قيد شعرة • وتجد مباحثه المنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسى التئام الدرر الملونة الصغيرة والكبيرة فى سمط القلادة السندسى • انه يحدث عن السماء كيف صنعت ، وعن الانسان كيف خلق ، وعن المشاهدات فى آثار الكون • وعن الأمم الخالية وقصصها • انه ينتقد أعمال مختلف الامم وسلوكها وعقائدها • أنه يوضح الشؤون والمسائل التى طى وراء الطبيعة • انه يتناول أمورا كثيرة غير ما ذكرنا • لا ليدرس الانسان علوم الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة أو أى فن من الفنون أو أدب من الآداب ، بل لكى يزيل ما عليه الناس من خطأ وسوء فهم عن الحق ، ويقرر فى أذهانهم الحقيقة الواقعية ، ويشعرهم بما يؤدى اليه المنهج الذى يخالف الحق من مصير بئيس وعاقبة وخيمة ، ويدعوهم الى المنهج الذى يلائم الحق ويأخذهم الى حسن المآب • ولهذا السبب نفسه هو لا يحدث عن كل هذه الأمور الا فى أسلوب يتناسب مع هدفه ، والى حد يلزم له • ومن دأبه أنه يذكر هذه الأمور بقدر الحاجة ثم يعود

الى بيان هدفه وبحثه الرئيسى بغض النظر عن التفاصيل التى لا علاقة لها بالبحث • ولذلك ترى حديثه يدور حول « الدعوة » بدون التـواء وبكل اتزان •

غير أنه من الصعب على الانسان أن يفهم الأسلوب البيانى للقرآن وترتيبه وأكثر مباحثه ما دام لا يعرف كيفية نزوله •

مراحل نزول القرآن :

ليس القرآن بكتاب أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ثم أمره بنشره ودعوة الناس الى ما فيه من منهج خاص للحياة البشرية • كما أنه ليس بكتاب عرض فيه موضـوعه وبحثه الرئيسى على غرار أسلوب التأليف الشائع ولأجل ذلك لا تجد فيه الترتيب الذى هو من شأن المؤلفات الانسانية ، ولا الأسـلوب البيانى الذى هو من شأن كتب الدنيا • وهذا الكتاب فى حقيقة الأمر من نوع فريد •

المرحلة الأولى :

وقصته أن الله تعالى قد اصطفى عبدا من عباده فى مكة ـ احدى مدن جزيرة العرب ـ لرسالته ، وأمره أن يبدأ بدعوته فى مدينته وفى عشيرته (قريش) ، وقد لقنه التعاليم التى لابد منها للشروع فى هذه المهمة • وهذه التعاليم الابتدائية كانت فى معظمها تحتوى على ثلاث نواح :

أولا : تعليم الرسول كيف يعد نفسه لتحقيق هذا الأمر الجليـل وعلى أى طراز يسعى سعيه •

ثانيا : المعلومات الأولية عن الحق ، والرد الاجمالى على ما كان فى أذهان الناس الذين يعيشون حوله من مغالطات وأخطاء عن الحق جعلت منهجهم فى عمى وضلال ٠

ثالثا : دعوة الناس الى المنهج الصحيح ، وايضاح مبادىء الأخلاق الرئيسية التى يحتضنها الهدى الالهى والتى فى اتباعهـا نجاح الانسان وسعادته ٠

كانت هذه المعانى الاولية تحتوى على شذور موجزة تناسب مرحلة انطلاق الدعوة فى لغتها الرفيعة ، وفى حلاوتها المتناهيـة ، وفى تأثيرها البالغ وهى فى أعلى درجات الذوق الأدبى الذى كان يساير مستوى ذوق المخاطب لتنطبع هذه الشذور الزمردية من النغم الالهى فى قلوب القوم انطباع السهم فى الصدور ولتميل اليها الآذان مستجيبه لترنمها الساحر ، ولتجرى الألسن بترديدها لما فيها من جمال التناسب وحلاوة التنسيق ٠

ثم ان هذه الشذور كانت مصطبغة بصبغة الأوضاع المحليـة الى حد كبير ، وان كان الحديث فيها يدور حول الحقائق الكونيـة الخالدة ولكن الدلائل التى كانت تساق لها ، والشواهد التى كانت تشير اليها ، والنظائر التى كانت تؤتى بها ، كانت تلتقط كلهـا من البيئة المجاورة المألوفة للناس ٠ فما جاء فيها من التاريخ فهو تاريخهم، وما قص فيها من الأحداث فهى أحداثهم وتقاليدهم ، وما ذكر فيها من الآثار فهى مما كانوا يشاهدونه بأم أعينهم ، وما ردد فيهـا من القول فهو عن مفاسدهم العقائدية ، ومساوئهم الخلقية ، وعيوبهم الاجتماعية ٠ وذلك لكى تصير هذه الدعوة أوقع فى نفوسهم وأقرب الى أذهانهم ٠

استغرقت هذه المرحلة الابتدائية من الدعوة حوالى أربع أو خمس

سنوات . ورد الفعل الذى ظهر فى هذه المرحلة من دعـــوة النبى صلى الله عليه وسلم كان يتجلى فى ثلاثة أشكال :

١ ـ آمن جماعة من خيار النـاس بـهذه الدعوة الكريمة واستعدوا ليكونوا أمة مسلمة .

٢ ـ نهض العدد الكبير من النـاس يناوئون هذه الدعوة ، أما لجهلهم أو انـجرافهم وراء الأهواء والاغراض أو ولوعهم بما وجدوا عليه آباءهم .

٣ ـ بدأت هذه الدعوة الجديدة تتعدى معدود مكة وأهلها من قريش وتنتشر فى نطاق أوسع نسبيا .

المرحلة الثانية :

ثم بدأت المرحلة الثانية من الدعوة . وقد نشأ فى هذه المرحلة صراع عنيف بين الحركة الاسلامية وبين الجاهلية السائدة ، وامتدت سلسلته قرابة ثمانى أو تسع سنوات ، لا فى مكة فحسب أو بين قريش فحسب . بل كل من كان يريد بقاء الجاهلية الأولى فى معظم أقطار جزيرة العرب ، شمر عن ساقه وكشر عن أنيابه للقضاء على هذه الحركة بما يملك من قوة .

استخدم المعارضون جميع الوسائل والمكايد لقمع هذه الدعوة ، قاموا بدعاية كاذبة ، وألقـــوا بوابل من الاتهـــامات والشبهات والاعتراضات ، وقذفوا الوساوس المنوعة فى قلوب الناس ، وحاولوا صد الذين كانوا يجهلون أمر النبى عن استماع ما يقـــوله ، وانهالوا على الذين آمنوا بالله ورسوله بألوان من الظلم وأنواع من التنكيل ، وقاطعوهم مقاطعة اقتصادية ، ونغصوا عليهم العيش حتى اضطـر كثير منهم الى الهجرة من ديارهم الى بلاد الحبشة مرتين . وآخـر الأمر هاجر جميعهم الى يثرب (المدينة المنورة) . وعلى رغم هذه

المعارضة الشديدة والتى كانت فى ازدياد مستمر ، بقيت الحركة فى انتشار وازدهار • ولم يكن بيت من بيوت مكة الا وقد آمن فرد من أفراده • وكان مما يزيد المعارضين عداء وحنقا لهذه الحركة أن أصبح أشقاؤهم وأحفادهم وأبناؤهم وأخواتهم وأزواج أخواتهم يتبعـــون دين الله وليس ذلك فحسب ، بل أصبحوا يسترخصون كل نفس ونفيس فى سبيله ثم نهضوا يقاتلون ذوى قرباهم •

ومن الطريف أن الذين كانوا يقطعون صلتهم بالجاهلية الأولى وينضمون الى هذه الحركة الناشئة كانوا ممن يعتبرون خيار مجتمعهم وزبدة قومهم ، وحينما كانوا ينخرطون فى سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغون فى صلاحهم وصدقهم واستقامة أخلاقهم الشأو البعيد ، حيث لم تتمالك الدنيا الا الاقتناع بسمو الدعوة التى كانت تستميلهم بشدة ثم تصنع منها ما تصنع •

وفى غضون هذا الصراع العنيف الطويل ، كان الله تعالى ينزل على نبيه بحسب المناسبات واقتضاء الحاجة ، كلمات (آيات) هياجة فى جريانها كالنهر الجارى وفى قوتها كالفيضان الهائل وفى تأثيرها كالنار المضطرمة وفى هذه (الآيات) أخبر المؤمنون بواجباتهم الابتدائية ، وبعث فيها الوعى الجماعى الحركى ، وعلموا الورع والتقوى ومكارم الأخلاق وطهارة السلوك ولقنوا مناهج تبليغ الدين القيم وطرق اقامته ، وشجعوا على مواصلة الدعوة بوعد غير مكذوب بالفوز بالجنة التى فيها نعيم مقيم • واستحثوا على الجاد فى سبيل الله بصـــبر واستقامة ومعنوية عالية • وعبئت قلوبهم بشوق دافق الى جنة عرضها السماوات والأرض ، وملئوا بحماسة دفعتهم الى مواجهة أقسى محنة والوقوف فى وجه أعتى عاصفة من المعارضة •

هذا فى جانب المؤمنين ، وفى الجانب الآخر أنذر الذين كفروا بالله وتمردوا على رسوله ، وحاربوا دعوته وأعرضوا عن الحق ،

بما صارت اليه الأمم التى خلت من قبلهم وكانوا يعرفون قصصها وتاريخها · ودعوا للاعتبار باثار المؤتفكات التى كانوا يمرون على أنقاضها مصبحين وممسين أثناء أسفارهم وعرضت عليهم أدلة التوحيد والآخرة المستندة على الآيات التى كانوا يشاهدونها فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وكانوا يرونها ويشعرون بها فى أنفسهم وفى حياتهم فى كل آن كما بين لهم بطلان موقف الاشراك بالله والادعاء بالاستقلال المطلق ، وجحود الآخرة والاصرار على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ، بدلائل ناصعة تستقر فى القلوب وتنفذ الى الأعماق البعيدة من العقول · وأزيلت آخر شبهة عالقة بأذهانهم عن صحة الدعوة ، ورد آخر اعتراض منهم برد معقول ، وحل آخر تعقيد ذهنى كانوا قد وقعوا فيه أو كانوا يوقعون غيرهم فيه ·

وخلاصة القول أن الجاهلية حوصرت من كل جهة وضيق عليها خناقها بشكل لم تبق لها معه أية مكانة فى عالم العقل والحصافة والجدية · ثم أنذروا ـ مع ذلك ـ بغضب الله وأهوال يوم القيامة وعذاب جهنم ، ونجوا على ما كانوا عليه من رذالة الأخلاق ، ومنهج الحياة الباطل ، وتقاليد الجاهلية ، ومعاداة الحق وايذاء المؤمنين ، وعرضت عليهم المبادىء الأساسية للاخلاق والمدنية التى نشأت عليها ـ وستنشأ ـ حضارات صالحة طاهرة فى العالم كسبت رضى الله فى كل دور من أدوار التاريخ البشرى ·

هذه المرحلة نفسها كانت تحتوى على عدة مراحل جزئية وفى كل من هذه المراحل ظلت الدعوة تتوسع ويمتد نطاقها وبالتالى ظل النضال يشتد ، ونار المعارضة تتسعر وظلت الدعوة تواجه كل يوم شكلا جديدا من العقائد والأفكار وتناضل نوعا جديدا من الفئات المختلفة فى أخلاقها ومواقفها ومن ثم فان آيات الله كذلك زادت تنوعا فى بحثها وتلونا فى عرضها وهذا هو السياق التاريخى للقرآن المكى ·

المرحلة الثالثة :

مضت على هذه الحركة ثلاثة عشر عاما تكافح وتجاهد واذا بها تفوز بمقر لها فى يثرب (المدينة المنورة) ودعت أتباعها من أنحاء جزيرة العرب الى هذا المقر ، لتكون مجتمعا مستقلا وتستجمع طاقاتها فى مركز واحد فهاجر النبى صلى الله عليه وسلم ومعظم أصحابه الذين اتبعوه باحسان الى المدينة المنورة • وبذلك دخلت الدعوة الاسلامية المرحلة الثالثة :

انقلب الوضع فى هذه المرحلة رأسا على عقب ، فالأمة المسلمة تمكنت من تأسيس دولة مستقلة ، وبدأ النضال المسلح من أصحاب الجاهلية القديمة ، وبدأت الدعوة تواجه أمم الأنبياء السالفة (أى الامة اليهودية والامة المسيحية) ، كما بدأت تتخلص كذلك من المنافقين الذين تسربوا الى الكيان الداخلى للامة الاسلامية • وبعد مقاساة الصراع العنيف والكفاح المديد عشر سنوات بلغت الحركة الاسلامية فى نهاية المطاف من القوة والسلطان درجة أصبح معها العرب كلهم خاضعين مستسلمين وانفتحت أمامها أبواب بث الدعوه على الصعيد العالمى ، والقيام بحركة اصلاحية عبر الحدود وقد اشتملت هذه المرحلة أيضا على عدة مراحل جزئية واجهت الدعوة فى كل مرحلة منها حاجات تختص بها • وتحقيقا لهذه الحاجات أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم من الكلمات (الآيات) ما كان أسلوبها يتنوع بتنوع الحاجة • فمرة كان أسلوبها أسلوب الخطاب المجلجل الرنان المتأجج بنار المشاعر ، وأخرى أسلوب الاوامر والمراسيم الملكية وثالثة أسلوب دروس المعلم ، ورابعة أسلوب تذكير المصلح الناصح • وجاء فيها كيف ينشأ المجتمع وتؤسس الدولة وتبنى المدينة الصالحة وعلى أى المبادىء والأنظمة تقام مختلف نواحى الحياة وبأى طريق يتعامل مع المنافقين ومع أهل الذمة من الكافرين وعلى أى لون توطد العلاقات مع أهل الكتاب ، وماذا يختار من السلوك مع الأعداء المحاربين والاقوام

المعاهدين وكيف تعد هذه الجماعة المؤمنة المنظمة نفسها للقيام بمهمة خلافة الله فى الأرض :

هذه الكلمات أو الآيات كانت تقوم بتوجيه المسلمين وتربيتهم على ما يرام وكانت تنبههم على مواطن ضعفهم وتحرضهم على أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وتعطيهم دروسا فى الأخلاق والسلوك تناسب واقعهم فى الانتصار والهزيمة ، وفى المحنة والراحة وفى السراء والضراء وفى الامن والخوف وما الى ذلك من حالات وكانت تصنع منهم جماعة تتوفر فيهم كفاءة ليخلفوا الرســـول صلى الله عليه وسلم بحق ، ويتابعوا مهمته فى الدعوة والاصلاح ٠ هذا فى جانب ، وفى الجانب الآخر كانت هذه (الآيات) تخـاطب الذين حرموا من الايمان من أهل الكتاب والمشركين والكفار والمنافقين، وتدعوهم الى الخير وفق حالة كل منهم وحسب موقف كل منهم من الدعوة وذلك بوسائل الاقناع وبالقول اللين والموعظة الحسنة ، وبالنصيحة البالغة والتقريع الشديد وبالتخويف من عـــذاب الله وباستخلاص جوانب العبرة والعظة من الأحداث والاوضاع المتضمنة للدروس القاسية ٠ ذلك لتقيم عليهم الحجة ، وتسد عليهم منافذ الأعذار ٠ وهذا هو السياق التاريخى للقرآن المدنى ٠

القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة :

ويتضح مما ذكرنا آنفا أن القرآن كان نزوله مقترنا بالدعـوة وتطورها وسيرها فنزلت منه قطع مختلفة ، نجما نجما ، وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعى فى كل مراحلها ومنازلهـا منـــذ بدايتها حتى اكتمالها ٠ وذلك فى فترة استغرقت ثلاثة وعشرين عاما كاملا ٠ ومن البديهى اذن أن مثل هذا الكتاب يعوزه الترتيب التأليفى من النوع الذى يختاره الطالب فى اعداد البحث لأجل الحصول على شهادة الدكتوراه ٠ كما أن القطع المختلفة الأحجام التى كانت نزلت

منسجمة مع تطور الدعوة ما كانت تنتشر فى رسائل وكتيبات بل كانت تلقى فى خطاب من رسول الله ثم تتناقل مشافهة وتبلغ من فرد لفرد لذلك ما كانت تصاغ على أسلوب التأليف ، بل كانت تعرض فى الاسلوب الخطابى الذى لا ينسج على منوال محاضرات الاستاذ فى الجامعة ، بل كان يشابه خطبة الداعية الذى عليه أن يستهدف اثرة العواطف بجانب مناشدته العقول ، وعليه أن يواجه كل نوع من انواع العقليات ، وعليه أن يعمل لما تقتضيه دعوته وحركته فى ظروف متباينة وأوضاع متضاربة . فمن اقرار الدعوة فى سويداء القلوب الى مخاطبة العقول بمختلف النظريات الى استثارة الفيض من المشاعر ، الى كسر شوكة المعارضة ، الى تربية الاتباع واصلاحهم ، الى نفخ الحماس فى نفوسهم الى تحويل الأعداء أصدقاء أوفياء الى ارغام المنكرين على الاقرار ، الى دحض حجه الجاحدين وقطع دابر نفوذهم الأدبى . وما الى ذلك من الامور التى يجب على قائد الدعوة وقائد الحركة ان يقوم بها على اكمل وجه وأوفق منهج .

ونظرا لكل ذلك فان الكلمات (الآيات والسور) التى أنزلها الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يتعلق بمهمته الجليلة كانت فى أسلوب خطابها على نفس الاسلوب الذى يلائم ظروف الدعوة ويناسب واقعها الذى تعيش فيه . ومن هنا لا يحسن بنا ان نطلب منه الاسلوب الذى يخص محاضرات الجامعة ودروسها .

سر التكرار فى القرآن :

ومن هنا يتضح وضوح الشمس فى رابعة النهار ، سر ترديد بيانات القرآن بكثرة اذ مما تقتضيه طبيعة الدعوة أن لا تحدث الا بما يناسب المرحلة التى تعيش فيها ، وما دامت تعيش فيها لا تتعرض لحديث يخص المراحل المقبلة بل تظل تردد حديثها عن المرحلة التى هى فيها ولو استغرقت الشهور أو السنين . وقد تتضجر الطبائع

وتسأم الاذن لو بقيت العبارة بعينها تتكرر وفي صياغة واحدة تتردد . لذلك فان المباحث التي تخص مرحلة من المراحل وتمس الحاجة الى عرضها مرة بعد أخرى كان يجب أن تصاغ في مرة ألفاظ مبتكرة وأساليب ناضرة ومحاسن بيانية غضة طرية تشتهيها الأنفس وتتلقفها القلوب . وبذلك تصبح كل مرحلة من المراحل متينة القواعد ، محكمة الدعائم ، مستقيمة البناء . ويجب فوق ذلك أن لا يعزب عن البال تلك المبادىء العامة والقواعد التي تعتمد عليها الدعوة في كل حين من الاحيان وفي كل وضع من الأوضاع منذ الخطوة الاولى حتى تمامها وكمالها بل لابد من أن تلفت اليها الانظار في جميع مراحل الدعوة لها . كان الحال . وهذا هو السر في شمول جميع سور القرآن على موضوعات ثابتة ولكن في ألفاظ متجددة وأسلوب متنوع .

فمثلا ما يتعلق بعقيدة التوحيـد ، وصفات الله ، الآخـرة ، ومسئوليتها وعذابها ، وثوابها والرسالة والايمان بالكتاب وتقوى الله والصبر ، والمصابرة ، والتواكل وما الى ذلك من حقائق أساسية فانك لترى القرآن يعيد ذكرها ويردد بيانها في جميع سوره المكية والمدنية ، لأن الحركة لا تستطيع الاغماض عنها أو التساهل فيها في أية مرحلة من مراحلها . ولو كانت هذه العقائد الأساسية وهنت في نفوس المؤمنين لمـا تقدمت حركة الاسـلام بروحها الصحيحة وطبيعتها الفـذة .

كيف رتبت آيات القرآن :

واذا سبرت غور ما سبق قوله لتوصلت الى جواب مقنع على ما يدور في خلدك من سؤال : لماذا لم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن حسب ترتيب نزوله عليه ؟

إن القرآن كان ينزل وفق الترتيب الذى سارت عليه الدعوة منذ

بدئها حتى بلغت أوج الكمال . ويتضح من ذلك أنه لم يكن من الحكمة فى شىء أن يختار لتدوين الأجزاء المنزلة نفس الترتيب الذى كان ملتئما مع سير الدعوة وتطورها ، بل الأمر كان بحاجة الى ترتيب جديد يكون أكثر انسجاما وأشد تجانسا وأدق ارتباطا مع الواقع الآتى بعد اكتمال الدعوة وتمام النعمة ، لأن المخاطبين الاولين لهذه الدعوة فى بداية أمرها كانوا ممن يجهلون الاسلام بالكلية ، فلذلك غشاهم الوحى بأوليات التعليم وبديهيات الايمان ثم لما اكتملت الدعـوة وبلغت ما شـاء الله ان تبلغه أصـبح مخاطبوها الأولون من الذين آمنوا بها وكونوا أمة مستقلة ، أصبحوا مسئولين عن متابعة الدعوة ومواصلة الحركة التى سلمها الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بعد كمالها فكرة ومنهاجا وهكذا صار الأمر الاهم هو أن يدرك هؤلاء المؤمنون ، قبل غيرهم واجباتهم ومناهج حياتهم ، وأن يعرفوا الفتن والأمراض التى ابتليت بها أمم الانبياء فيما مضى ، قبل أن يتقدموا بهداية الله الى البشرية التى ترزح تحت نير الضلال والغواية والانحراف .

وهناك حقيقة أخرى تتكشف للانسان اذا ما وفق الى معرفة أسلوب القرآن ، وهى أن وضع الآيات المتجانسة فى المباحث فى موضع واحد لا يوافقه طبيعة هذا الكتاب ، بل من عين ما تقتضيه طبيعته هو أن يجد القارىء أثناء دراسته للقرآن الآيات المكية (أى التى نزلت فى مكة) تتخللها الآيات المدنية (التى نزلت فى المدينة) والمواعظ الابتدائية تحف بها الوصايا النهائية وتعاليم المرحلة الختامية تواكبها تعاليم المرحلة الابتدائية ، وهكذا يلمح أمام عينيه منظر الاسلام الكامل وتخطيطه الشامل مشرقا متلالئا بصفة مستمرة ، ولا يبرز له من واجهة بعينها دون غيرها .

لو جمع القرآن على الترتيب الذى نزل عليه لما كان هذا الترتيب مجديا ومفهوما للعصور التى تلت عهد النبوة ، بدون أن يضاف الى

القرآن تاريخ نزوله وتاريخ الظروف التى نزل فيها كل جزء من أجزائه كملحق للقرآن • الأمر الذى كان ينافى الغرض الذى شاء الله لأجله أن يدون كلامه ويحفظ فى مصحف • والله سبحانه وتعالى كان يريد أن يجمع كلامه خالصا نقيا لا يشوبه شائبة من الزيادات ولا يمازجه كلام غيره يرتب على ما هو عليه من الايجاز والاعجاز معنى وصورة ، لتتيسر قراءته لكل فرد من الأفراد • الصغير والكبير ، الناشىء والكهل ، الرجل والمرأة ، الرجل العادى ، والعالم الضليع ، فى المدن والقرى ، فى كل زمان ومكان ، فى كل حال وواقع • وليدرك جميع الناس على الأقل ـ مهما اختلفت درجات عقولهم ـ ماذا يريد الله منهم وماذا لا يريده منهم • ومن الواضح أن لو أضيف الى القرآن ، تاريخه المطول وجعلت تلاوته أمرا لازما مع تلاوة القرآن ، لضاع هذا الغرض •

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الذين يعترضون على الترتيب الحالى للقرآن يظنون عن سوء فهم أن هذا الكتاب قد أنزل الى طلبة علم التاريخ وعلم الاجتماع •

وفيما يتعلق بترتيب القرآن يجب أن يعرف الدارس كذلك أن الترتيب الحالى ما قام به الذين جاءوا بعد النبى صلى الله عليه وسلم به هو توقيفى وضعه النبى صلى الله عليه وسلم نفسه بتوقيف من جبريل عليه السلام وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أنه كلما نزلت سورة من سور القرآن كان يدعو بعض كتابه وكان يأمر بكتابتها ويأمر بوضعها عقب سورة كذا وقبل سورة كذا ، وكذلك حين ينزل شىء من القرآن (أى آية أو بضع آيات) ولم يرد جعله سورة مستقلة أمر النبى صلى الله عليه وسلم بوضعه كذا من سورة كذا • ووفق هذا الترتيب نفسه كان صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فى الصلوات وغيرها من المناسبات • ووفق هذا الترتيب نفسه كان أصحابه الكرام يستظهرون القرآن ويتدارسونه • ولهذا كان من الثابت تاريخيا أن اليوم الذى أكمل فيه نزول القرآن أكمل

فيه ترتيبه ومرتبه هو الذى أنزله · والذى أنزل القرآن على قلبه رتب القرآن على لسانه · وما كان لأحد غيره أن يتدخل فيه ·

تدوين القـرآن :

وربما أن الصلوات كتبت على المسلمين منذ البداية(١) وتعينت قراءة ما تيسر من القرآن فيها · فلذلك بدأت فى المسلمين حركة حفظه فى الصدور ، مقرونة بنزوله على صاحب الوحى عليه الصلاة والسلام · وكلما كان ينزل منه شىء كانوا يتلقونه ويستظهرونه عن ظهر غيب · ولم ينحصر حفظه بكتابته فى العسب وقطع الأدم وكسر الاكتاف(٢) التى كان يكتب فيها كتاب النبى صلى الله عليه وسلم تحت رعايته . بل كان يرتسم كذلك بمجرد نزوله على العشرات فالمئات ثم الآلاف فالملايين من الصدور ومن هنا ما كان لباطل أن يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ليغير فيه ولو كلمة ·

ولما ظهرت فتنه الردة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم نام الصحابة رضوان الله عليهم بمعارك دامية لقمعها وقطع دابرها · فاستشهد فيها جماعة كبيرة من قراء الصحابة الذين كانوا يحفظون القرآن كله · الأمر الذى بعث عمر رضى الله عنه على القول بأنه

---

(١) وليكن القارىء على ذكر أن الصلوات الخمس كتبت على المسلمين بعد البعثة بسنوات ، أما الصلوات كعبادة فقد أمر بها المسلمون منذ اليوم الأول · ولم تمض على الاسلام ساعة لم تكن الصلوات فيها واجبة مطلوبة ·

(٢) العسب بضم فسكون وبضمتين أيضا جمع عسيب وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض · والأدم بضمتين وبفتحتين أيضا جمع أديم : وهو الجلد المدبوغ ، والاكتاف جمع كتف : وهو عظم عريض يكون فى أصل الحيوان ·

لا ينبغى الاعتماد على صورة واحدة فى باب المحافظة على الذكر الحكيم بل يجب الاهتمام بحفظه فى قراطيس الصحف مع حفظه فى طيات الصدور • فذكر عمر رضى الله عنه ضرورة هذا الأمر لابى بكر رضى الله عنه الذى تردد بادىء ذى بدء ، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله لذلك صدر أبى بكر وكلف زيد بن ثابت الأنصارى الذى كان من كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وكان يكتب الوحى أن يتتبع القرآن ويجمعه • والطريقة التى قررت لاستكمال هذا الأمر الخطير هى أن يجمع كل ما تركه النبى صلى الله عليه وسلم من أجزاء مكتوبة فى صحف من الرقاع والجلد ونحوها ، ويؤخذ كذلك ما يوجد عند أى واحد من الصحابة مما كتب من القرآن ، ثم يستعان بحفاظ الصحابة فى ضبط المحفوظ • وبناء على شهادة اجماعيه من هذه الوسائل الثلاث وبعد التثبت من عدم وجود ايه غلطه فى المكتوب والمقروء تسجل نمطة لفظه من القران وبموجب هذه الطريقة المحكمة كتبت نسخه من القران فى الصحف ، واودعت عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها التى كانت تحفظ القرآن كله فى صدرها • وأذن لعامة المسلمين أن ينسخوا منه او يقابلوا ما عندهم من المكتوب عليها •

وكانت لغات القبائل فى الجزيره العربية تختلف بعضها عن بعض فى القراءات واللهجات شان السنتنا باختلاف المدن والمديريات فى بلادنا (باكستان) مع ان لسان جميعها واحد أى الاردو أو البنجابى أو البنغالى والقرآن كان قد نزل بلسان قريش ولكن أجيز فى اول الأمر للقبائل الاخرى أن يقرا اهل كل قبيله القرآن بلغتهم وبما جرت عليه عادتهم ، لأن ذلك لا يؤدى الى اختلاف معان موجبة لاختلاف أحكامه بل بذلك يسهل عليهم التلاوة وتلين لهم العبارة ولما اتسع نطاق الفتوح الاسلامية ، وتعدى العرب صحاريهم القاحلة وفتحوا الاقطار الشاسعة من العالم ودخلت الأمم الاخرى فى دين الله واختلط العرب بالعجم ، وتأثرت بذلك الاختلاط لغتهم خشى الناس حدوث أنواع

من الفتن لو استمر الناس على تلاوة القرآن بلهجاتهم وعاداتهم التى درجوا عليها كأن يسمع أحدهم غيره يقرأ كتاب الله بلغة لم يألفها هو فيغيظه يحرف القرآن معتمدا فيكفره ويقتتل معه • أو يتدرج اختلاف الالفاظ والتلاوة الى فتح باب التحريف والتصحيف أو أن تفسد لغة بعض العرب باختلاطهم مع العجم فيصرفون القرآن على لغتهم الفاسدة ويشوهون بديع كلامه ورونق قراءته •

وحرصا على ابعاد المسلمين عن تلك الفتن قرر عثمان رضى الله عنه على مشورة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن تنسخ المصاحف من الصحف المعتمد عليها والتى ضبطت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وتفرق فى البلاد الاسلامية ويمنع من التداول ماسواه من القرآن المكتوب بقراءة أخرى أو لهجة مخالفة ففعل عثمان ذلك وعهد الى جماعة من الصحابة بجمعها فى مصحف واحد وكتب منه نسخا كثيرة وزعت على الأمصار وبعث مع كل مصحف من يرشد الناس الى قراءته •

ان المصحف الذى بين أيدينا اليوم هو على طبق رسم مصحف الصديق الذى نسخ منه عثمان رضى الله عنه نسخا عديدة تحت اشرافه وفرق منها فى المدن والأمصار ولا تزال هذه النسخ المعتمد عليها محفوظة بعديد من الأماكن فى الدنيا • والذى يشك فى « تمام حفظ » الذكر الحكيم فله أن يشترى نسخة من المصحف الكريم من مكتبة فى افريقية الغربية ويقابله بسماعه مشافهة من أحد الحفاظ فى جاوا ، ثم يقابله بما فى المكتبات الكبيرة فى العالم من المصاحب الأثرية التى كتبت فى مختلف القرون منذ عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه الى يومنا هذا فاذا وجد فيه فرقا ولو فى كلمة من الكلمات أو فى حركة من الحركات فمن واجبه أن يطلع على الدنيا بهذا « الاكتشاف التاريخى المدهش » •

وللمرتاب أن يرتاب فى كون القرآن منزلا من الله تعالى ان

شاء · أما كون ما بأيدينا اليوم من القرآن هو عين القرآن بنصه وفصه الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وأقرأه الناس فهذه ظاهرة تاريخية لا مجال للشك والارتياب فيها · لا تجد شيئا مما توارثته الدنيا فى التاريخ البشرى الطويل يكون على ما عليه القرآن من الثبوت القطعى المحتوم ومن يشك فى صحته فقد يشك أيضا فى ظهور الامبراطورية الرومانية على الأرض المعمورة فى عصر من عصور التاريخ ، أو فى الحكم المغولى فى الهند قبل قرون ، أو فى وجود شخصية « نابليون » وابداء الشك فى ظواهر تاريخية كهذه ليس من خصائص العالم والمعرفة وانما هو من أمارات الجهالة والغباوة ·

منهج لدراسة القرآن :

ان القرآن كتاب يرد على منهله الفياض عدد لا يحصى من الناس لأجل عدد لا يحصى من الاغراض · لذلك يتعذر على أن أقدم للدارس مقترحاتى فى صدد دراسة للقرآن تستهدف تحقيق مطالب وأغراض هذا العدد الهائل من الواردين عليه ولا يجذبنى من هذه الكتل البشرية الا الذين أشم فيهم رائحة الحرص على فهم هذا الكتاب ومعرفة مطالبه وتوجيهاته فى شئون الحياة الانسانية ومسائلها المعقدة · فأحب أن أعرف هؤلاء منهجا لدراسة القرآن ، ثم أشاطرهم حل المشكلات والمصاعب التى يواجهها كل دارس بصفة عامة ·

يجب ـ كخطوة أولى ـ على كل من يريد فهم القرآن ، سواء آمن به أو لم يؤمن أن يخلى ذهنه ما أمكن من جميع ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات ، ويطهره من سائر ما يكنه من الرغبات الموالية أو المناوئة ، ثم يكب على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وقصد نزيه لفهمه · أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات فى أذهانهم مقدما فما يقرؤون بين دفتيه الا تصوراتهم أنفسهم · ولا يجدون شيئا من رائحة القرآن · ولا يصلح هذا المنهج

لدراسة أى كتاب من الكتب ، فكيف بالقرآن الذى لا يفتح كنوز معانيه أبدا للذين يدرسونه باتباع مثل هذا المنهج ٠

منهج الدراسة التفصيلية الشاملة :

ثم ان الذى لا يريد من القرآن الا معرفة اجمالية فعسى أن يكفيه دراسته مرة أو مرتين ٠ أما الذى يريد أن يغوص فى أعماقه ، ويدرك أسراره فلا يكفيه أن يدرسه أربع أو خمس مرات ٠ وعليه أن يفزع اليه تكرارا ومرارا ، ويقبل على دراسته اقبالا لا ملل فيه ولا كلل ، وأن يدرسه كل مرة من وجهة جديدة ، وأن يأخذ معه ـ كطالب من الطلبة ـ الأدوات اللازمة من الدفتر والقلم ليسجل ما يعن له من نقاط هامة خلال الدراسة ٠ والذين يرغبون فى دراسته على نهج قويم كما قلنا ، عليهم أن يستوعبوا قراءته فى ختمتين لمجرد أن يلمع أمامهم نظامه للعقيدة ومنهجه العام الذى يفاضل الدنيا عليه كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة الأولية تحقيق النظرة الاجمالية فى مشاهد القرآن العامة ويتبينوا التصورات الاصلية التى يقدمها للناس ومعالم نظام الحياة التى يبينها على أساس هذه التصورات ٠ وفى خلال هذه المرحلة المتعة اذا خطر فى ذهنهم سؤال فلا يستعجلون البت فى شأنه بل يقيدونه فى مذكرة ويواصلون مطالعتهم ملتزمين جانب الصبر والجد ، فهم سوف يعثرون غالبا على الجواب فيما يقبل من الصفحات ٠ واذا عثروا عليه قيدوه كذلك فى المذكرة أمام السؤال ٠ واذا لم يظفروا بالجواب خلال الدراسة الأولية يستأنفون دراسقه كجولة ثانية ويكون الصبر حليفهم والتأنى دثارهم ٠ وأقول بناء على تجاربى لا يكون من سؤال الا وتجدون جوابه ، وما من معضلة الا وتبلغون حلتها فى دراستكم العميقة الثانية ٠ اللهم الا فى الندرة النادرة التى تتقاصر عنها أفهام الرجال ٠

هذا ، وبعد تحقق النظر الاجمالى الشامل فى القرآن على ما أشرنا ، على الدارس ، أن يبدأ بدراسة تفصيلية للقرآن وفى

هذا الصدد يجب عليه أن يثبت فى قرارة ذهنه كل ناحية من تعاليم القرآن التى يمر بها أثناء الدراسة ، فيحاول - مثلا - أن يعرف ما هو المثل الانسانى الأعلى الذى يحبه القرآن ، وما هو النموذج الانسانى الذى يكرهه ويبغضه • وتحقيقا لهذا المطلب يسجل فى مذكرته خصال « الانسان المطلوب » فى نظره القرآن فى عمود ، وخصال « الانسان المرفوض » فى نظر فى عمود مماثل وجها لوجه • كما يحاول أن يعرف - كمثل آخر - موجبات نجاح الانسان وسعادته حسب مقياس القرآن ، والأسباب التى يعتبرها مبعث الهلاك والدمار ومدعاة الخسران والشقاء وأصح طريقة لمعرفة هذا المطلب أيضا ، بأبعاده الشاسعة وتفاصيله الشاملة ، أن يقيم فى مذكرته عمودين مماثلين : احدهما لموجبات السعادة ، والثانى لموجبات الخسران ، ويسجل كل ما يصل اليه فى هذا الموضوع • وقياسا على ذلك ينبغى له أن يقيد حسب ما ذكرنا جميع تعاليم القرآن الحكيم فى كل مسألة من مسائل الحياة من العقائد والاخلاق والحقوق والواجبات والاجتماع والمدنية ، والاقتصاد والسياسة ، والتشريع ونظام الجماعة ، والحرب والمهادنة وما الى ذلك ، لكى يستبين على أى شكل تتكون كل شعبة من شعب الحياة ثم على أى شكل تتكون الحياة الاسلامية بعد توحيد هذه الشعب وتكييفها فى الاطار العـام •

منهج دراسة مسألة بعينها :

ثم اذا أراد الانسان أن يتبين وجهة نظر القرآن فى مسـألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديما وحديثا بكل امعان ، ويحدد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح أساسية ونقاط رئيسية ، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الانسان ومدى ما وصل اليه فى هذه المسألة عبر التاريخ ، وما هى جوانبها التى تتطلب حلولا ، وما هى النقطة التى لم يستطيع التفكير الانسانى تخطيها حتى اليوم • واذا حقق ذلك ، فله أن يدرس القرآن واضعا أمام عينيه

الجوانب التى تتطلب الحلول فى هذه المسألة • ومما جربته أن الانســان اذا درس القرآن باحثا فى مســألة من المسائل على نحو ما ذكرت ، فانه يفاجأ بالردود على أسئلته فى آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل ولم يخطر بباله أن تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود •

شروط أساسية لدارس القرآن :

ومهما يتخذ الانسان من التدابير ويستخدم من الوسائل لفهم القرآن فانه لا يصل الى جوهر القرآن وروحه كما ينبغى ، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن •

ان القرآن ليس يحوى نظريات مجردة وأفكارا محضــة حتى تدرسه جالسا على الأريكة ثم تفهم جميع مطالبه • كما أنه ليس بكتاب يبحث فى اللاهوت فتحل جميع أسراره ومكوناته فى المعاهد والزوايا ان هذا الكتاب ، كما قلنا فى مستهل المقدمة كتاب دعوة وحركة وبمجرد نزوله أخرج رجلا وادعا دمثا ، سليم الفطرة كريم الشيم ومحب للسكوت ، من زاوية الانعزال ، وأوقفه فى مواجهة العالم الذى كان قد انصرف عن الحق ، وجعله يقارع الباطل ويحارب أئمة الكفر وقادة الفسق ورواد الضلال ان هذا الكتاب انتزع كل روح سعيدة كل نفس زكية من كل بيت وجمعها تحت لواء صاحب الدعوة • ان هذا الكتاب أخرى غيظ كل فتان مفسد وجعله يقاتل أنصار الدعوة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة •

ان هذا الكتاب هو الذى قام بتوجيه الحركة الاسلامية الهائلة خلال مدة ثلاثة وعشرين سنة ، والتى بدأت عملها من صرخة فرد واحد وانتهت فى نهاية المطاف الى اقامة الخلافة الالهية فى الأرض • وهذا الكتاب هو الذى تولى وضع مخططات الهدم ومشاريع البناء

فى كل مرحلة من المراحل وفى كل خطوة من الخطوات خلال المعركة المديدة الضارية بين الحق والباطل ٠

اذن فكيف يتأتى لك اليوم أن يتجلى لك جميع ما يضمر هذا الكتاب من أسرار وحقائق بمجرد أن تمر على حروفه تنطق بكلماته ، وبدون أن تنزل الى ميدان الصراع بين الدين والكفر ، وتغبر قدميك فى معركة الاسلام والجاهلية وبدون أن يصادفك المرور بمنزل من منازل هذا االكفاح ٠

لا تستطيع أن تفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور الى حين تحكم هذا الكتاب وتبدأ بالدعوة الى الله وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك وكيفما يعلمك ٠ ومن هنا لابد أن يستقبلك جميع ما استقبل حامليه من التجارب والمحن : تشاهد مشاهد مكة والحبشة والطائف ، وتواجه المراحل الممتدة من بدر الى حنين الى تبوك وتتشابك مع « أبى جهل » و « أبى لهب » وتلاقى المنافقين واليهود ، وترى وتختبر كذلك كل النمذاج الانسانية مارا بالسابقين الأولين الى المؤلفة قلوبهم ٠ فهذا سلوك فريد لا يماثله أى نوع من السلوك ، وأسميه « السلوك القرآنى » ومن شأنه أنه كلما مررت بمنزل من منازله تطالعك آيات وسور من القرآن تحيطك علما بأن هذا هو المهبط الذى نزلت فيه ، وجاءت فيه بكذا من التوجيهات والتعاليم وفى ذلك الحين لا يستبعد أن يغيب عن نظر « السالك » شىء من أسرار اللغة والبلاغة والمعانى والبيان الا أنه يستحيل أن يضن القرآن بالكشف عن جوهره وروحه أمام ذلك « السالك » ٠

ووفقا لنفس المبدأ لا يستطيع الانسان أن يدرك مغزى أحكام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمدنية ومبادئه ونظمه فى مختلف نواحى الحياة ما دام لا يطبقها فى الحياة ، لا يدرك مغزاها فرد يعيش فى حل منها فى حياته الفردية ولا تدركه أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكا يخالف منهجها ٠

القرآن كتاب هداية للبشرية كافة :

وكل رجل شريفا كان أو وضيعا يعلم أن القرآن أعلن أنه جاء لهداية النوع البشرى بأجمعه ولكن اذا تناوله أحد ليدرسه يرى أنه لا يخاطب الا من وجد من العرب حين نزوله واذا كان يدير وجهه أحيانا الى كافة الناس فان معظم ما يقول يرجع الى ما يختص بذوق العرب وحدهم وببيئتهم وحدهم وتاريخهم وتقاليدهم وحدهم والانسان حين يرى ذلك يبدأ يتساءل : ان كان الكتاب الذى أنزل الهداية لكافة البشر لماذا يعنى عناية كبيرة بعناصر وقتية ومحلية وقومية ؟ بل يقع بعض الذين يجهلون حقيقة الأمر فى شك ويقولون : ربما نزل هذا الكتاب لاستصلاح من يعاصره من العرب ثم حمل فيما بعد ما لا يحتمله من دعوة عالمية وهداية لكافة الناس الى الأبد ٠

وأقول للذى أثار هذا الاعتراض لا لمجرد الاعتراض ،بل أراد معرفة الحقيقة ينبغى أن يدرس الكتاب ويحط تحت النصوص التى دعا فيها القرآن الى عقيدة أو فكرة أو تصور ، أو عرض فيها مبدأ فى الأخلاق أو قاعدة الى الحياة العملية تختص بالعرب وحدهم ، وتنحصر بحكم الزمان والمكان فى حدود لا تتعداها !! اما مجرد كونه يخاطب أناسا عاشوا فى زمان بعينه ويتناول ما حولهم من الموجودات كمواد للاستشهاد يبنى عليها دلائل التوحيد فهذا وحده لا يكفى لأن يحكم بأن دعوته كانت تختص بزمن دون الازمان ونداءه كان موجها الى قطر دون الاقطار ٠ وبدلا من ذلك ينبغى أن يتبين مثير الاعتراض أن الذى جاء به القرآن فى رفضه لعقيدة الشرك يصدق على كل نوع من الشرك فى الدنيا كما صدق على شرك العرب ٠

ألا يحسن بنا بعد ذلك أن نلجأ فى استصلاح عقائد المشركين فى كل عصر ومصر الى نفس الدلائل والحجج التى جاء بها القرآن ؟

ألا يجوز أن نستعمل أسلوب القرآن فيما يستدل به على اثبات التوحيد فى كل زمان ومكان بعد تعديل يسير ؟

اذا كان الجواب نعم فليس من مبرر للقول بأن دعوة القرآن الخالدة العالمية دعوة آنية ومحلية استنادا الى أنها عرضت على قوم بأعينهم فى زمن بعينه وما من فلسفة أو نظام للحياة أو مذهب من المذاهب عرضت جميع تفصيلاته من الألف الى الياء فى أسلوب محض Abstract ولم تتمثل فى أوضاع واقعية أو صور حية ٠

هذا النوع من التجريد لا يمكن أن يوجد فى عالم النظريات وان افترضنا وجوده فان النظرية التى تعرض على هذه الصورة من التجريد لا تعدو حبرا على الورق ويستحيل أن تنساب فى حياة الناس وتتحول الى نظام عملى ٠

ثم اذا أريد تعميم حركة عقائدية وخلقية ومدنية على صعيد عالمى فلا يلزم لذلك أبدا أن تجعل الدعوة عالمية من البداية ٠

بل المنهج الصحيح الوحيد لذلك هو أن تنتشر الحركة ما تدعو اليه من عقائد ونظريات ومبادىء فى البلد الذى نشأت فيه ، وأن تقرها فى أذهان أناس يعرف القائمون بالحركة لغتهم وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وأن تطبقها فى الحياة العملية وتقيم عليها نظاما موفقا للحياة ثم تعرضه على الدنيا كنموذج يحتذى به ٠

وبهذا الطريق وحده تلتفت اليها الأمم الاخرى ويستبق اليها أصحاب العقل الراجح والرأى السديد من تلك الامم ليتلقوها ويسعوا لترويجها فى بلدانهم ، وعلى هذا فمجرد عرض نظام ما للعقيدة والمنهج على أمة دون غيرها بادىء ذى بدء وان استنفد هذا العرض كل طاقات

التحليل والاحتجاج لاقتناع تلك الأمة وتثبيتها ليس دليلا على كون ذلك النظام قوميا محضـا ٠

والخصائص التى تميز النظام القومى من النظام العالمى ، والنظام المؤقت من النظام الخالد ، هى أن النظام القومى اما أن يدعو الى تفضيل شعب على غيره ويطالب له بحقوق ومميزات خاصة ، واما أن يؤمن بمبادىء ونظريات لا تستطيع أن تروج وتزدهر فى الشعوب الأخرى ٠ وعلى العكس من ذلك فان النظام العالمى يؤمن بالمساواة بين الناس ويعطى الجميع حقوقهم بدرجة متساوية ، وتكون مبادئه عالمية الصيغة ، عالمية الأهداف والمثل ٠ ثم ان النظام المؤقت ينشىء بناء على قواعد تفقد قابليتها للعمل بمرور الايام ، بينما النظـام الخـالد تنطبق مبادئه على جميع الظروف المتطورة ٠

فهل من دارس للقرآن يدرسه واضعا امام عينيه الخصائص المشار اليها ٠ ثم يستطيع أن يحدد لنا مآخذ يبنى عليها ظنه فى كون النظام المعروض فى كتاب الله نظاما وقتيا وقوميا ؟

القرآن كتاب مبادىء عامة :

ومن الدارسين لهذا الكتاب من قد ألقى فى سمعه كذلك ان هذا **الكتاب عبارة عن « مرشدات للتوجيهات التفصيلية » و « دليـل للدستور » ثم اذا انصرف الى قراءته لا يجد فيه أحكاما وأنظمـة تفصيلية عن الاجتماع والمدنية والسياسة والاقتصاد وما الى ذلك بل أن الواجبات الهامة كالصلاة والزكاة التى يعيد الكتاب ذكرها ويؤكد عليها بشدة لم يدون لها أحكام تفصيلية ومثـل هذا الأمر يشوش ذهنه ويدفعه الى التساؤل : ما هو المراد من كونه مرشـدا للتعاليم الالهية ٠**

وكل ما ينشأ هنا من تشويش فى ذهن الانسان مرده أن يغيب عن باله احدى نواحي الحقيقة ، وهى أن الله لم ينزل الكتاب فقط ، بل أرسل معه رسوله أيضا • وأقول على سبيل التمثيل : اذا كان المشروع المقصود هو وضع تصميم لبناء وتقديمه للناس لينشئوا البناء وفق هذا التصميم • ففى هذه الصورة لابد لنا من تخطيط مطول يرشدنا الى كل جزء من أجزاء البناء • أما اذا ولى أحد المهندسين من قبل الحكومة ومعه التوجيهات المعمارية العامة . فان هذا المهندس يشيد البناء وفق هذه التوجيهات ، ومن الخطل ـ اذن ـ أن نصرف أعيننا عن المهندس وما شيده من البناء • ثم ننشد تفصيلات الجزئيات فى التصميم ونشكو نقصه ان لم نجدها فيه •

وكذلك القرآن ليس هو بكتاب الجزئيات ، بل هو كتاب المبادىء والقواعد الكلية ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الاسلامى بوضوح ثم يتبعها تثبيتا قويا بكلا الطريقتين : التدليل العقلى والتحريض العاطفى أما ما يتعلق بالصورة العملية للحياة الاسلامية فانه لا يرشد الانسان اليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية عن كل ناحية من نواحي الحياة ، بل انه حدد الحدود الأساسية لكل شعبة من شعب الحياة ونصب معالم جلية فى بعض النواحي تشير الى خطوط عريضة يجب أن تؤسس عليها هذه النواحي وفق مرضاة الله •

حول الخلاف فى تفسير القرآن :

وكان من مهمة النبى صلى الله عليه وسلم تكييف الحياة الاسلامية فى ضوء هذه التعاليم • ولم يبعث صلى الله عليه وسلم الا ليحقق نموذجا من السلوك الفردى ومن المجتمع والدولة يكون ترجمة حية تتمثل فيها المبادىء التى قررها القرآن •

وهنا سؤال آخر يخالج أذهان الناس : القرآن أنحى باللائمة على الذين اختلفوا بعد أن جاءهم الهدى من الله تعالى ، وتفرقوا فى الدين • هذا فى جانب ، وفى الجانب الآخر توجد خلافات فى تفسير أحكام القرآن وتأويلها لا بين المتأخرين فحسب ، بل بين التابعين ومن تبعهم حتى بين الصحابة أنفسهم ، الى درجة أنك لا تجد آية من آيات القرآن اتفق المفسرون على قول واحد فى تفسيرها • أليس هؤلاء الناس يستحقون نفس اللوم الذى ورد فى القرآن ؟ اذا كان الجواب لا ، فأى اختلاف وأى فرقة تلك التى ينكرها القرآن وينحى باللائمة على أصحابها •

هذه قضية متشعبة كثيرة الجوانب لا يجدر بنا فى هذا المقام أن نتناولها بالبحث المبسط • وحلا لما يساور ذهن عامة الناس من التعقيد يكفى "الاشارة الى أن القرآن لا يمنع الخلاف النزيه البناء الذى يقع بين القائمين على تفسير الأحكام والقوانين " بناء على دراساتهم الجدية المخلصة ، بينما هم يلتقون فيما يرجع الى أصل الدين ويتفقون فيما يتعلق بنظام الجماعة الاسلامية •

أما الخلاف الذى يذمه القرآن فهو الذى نشأ من نفوس ذات هوى وعقول معوجة ، وانتهى به المطاف الى التكتل والطائفية المقوتة والنزاع الداخلى وهذان الخلافان لا يتجانسان فى أصلهما ولا يتشابهان فى نتائجهما فكيف نحكم عليهما بحكم واحد •

أما الخلاف من النوع الأول فهو جوهر الرقى والتطور ومصدر الحياة ونضارتها ولابد من أن يوجد فى كل مجتمع مكون من أهل الرأى والفكر ووجوده دليل الحياة والحيوية ، ولا يخلو منه الا مجتمع يتكون من أناس لا يتمتعون برجاحة العقل ووفرة الذكاء بل هم تماثيل خشبية ودمى لا حياة فيها •

وأما الخلاف من النوع الثانى فيعلم جميع أهل الأرض أنه ماظهر فى كتلة بشرية الا ومزقها شر ممزق وحطمها أشنع تحطيم • فظهوره من أمارات المرض لا من بشائر الصحة ، ولم تكسب أمة من الأمم منه الا نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة •

ويتجلى ما بين هذين النوعين من الخلاف من فروق فى الصورتين التاليتين :

فى الصورة الأولى : يجمع جميع الناس على طاعة الله ورسوله ، ويعتقدون فى الكتاب والسنة مصدرين للاحكام والتشريعات ، ثم يختلف امامان من أئمة الاجتهاد فى تحقيق احدى المسائل الفرعية أو قاضيان فى فصل احدى الدعاوى ، ولا يجعل أحدهما المسألة التى اختلف فيها أو الرأى الذى يراه عمادا للدين ، ولا يعتبر الذى يخالفه فى ذلك خارجا عن دائرة الدين بل كلاهما يشبع رأيه بما عنده من الدلائل والمراجع الى أقصى ما يستطيع أن يتركه للرأى العام ان كان رأيه يتعلق بمصالحه ، والقضاء العالى فى البلاد ان كان الموضوع يرجع الى التحكيم ، ولنظام الجماعة الاسلامية ان كانت القضية قضية اجتماعية ، فيقبل رأى أحدهما أو كليهما •

وفى الصورة الأخرى : يجرى الخلاف حتى فى أسس الدين ، أو يختار عالم أو متصرف أو مفت أو مجادل أو زعيم رأيا فى مسألة لم يجعلها الله ورسوله من مسائل الدين الأساسية ، ثم يجعله بتأويلات بعيدة من المسائل الاساسية للدين ، ويحكم على كل من يخالفه فى ذلك بخروجه عن دائرة الاسلام ، ويشكل من أنصاره عصبة ويقول ان هذه هى أمة مسلمة أصيلة ومن شذ عنها شذ فى النار وينادى صارخا : « عليك الانضمام الى هذه العصبة ان كنت مسلما والا فلست بمسلم » •

وثالثة يأتى بنتائج غريبة لمحاولته ايجاد وجوه للتناسق وذلك باجتهاد شخصى متكلف ٠

والقرآن حينما يذم الاختلاف والتكتل والطائفية والعصبية يذم الصورة الثانية ٠ أما الخلاف فى الصورة الأولى فنجد له أمثلة عديدة حتى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقره فقط بل استحسنه ٠ ذا الخلاف كان يبشر بوجود طاقات وكفاءات من التفكير والتأمل والتحقيق والتحرى والتحسس والفهم والفقه فى كيان الجماعة الاسلامية ، وكان يدلل على أن أصحاب الرأى والكفاءة فى الجماعة يوالو ن اهتمامهم الكبير للدين وأحكامه ٠ وأن كفاءاتهم لا تتلمس حلولا لمسائل الحياة من خارج الدين بل تتلمسها فى داخله ٠ وأن الجماعة بجملتها تأخذ بمبدأ جديد بأن يكتب بالتبر بدل الحبر ٠ وهو الالتقاء على مبادىء الدين لكى تحافظ على وحدتها ، ثم اعطاء أهل العلم وقادة الرأى حريتهم فى الاجتهاد والاستنباط والتحقيق فى حدود سليمة لكى توفر لنفسها فرص التطور وجوانب التقدم ٠

هذا ما عندى والعلم عند الله ، عليه توكلت واليه أنيب ٠

الفهــــرس